تقديم

أحمدُ اللهَ على ما أنعَمَ به عَليَّ وعَلَى والـديَّ، وأسألهُ أن يَمْنَحَ سيدنَا مُحمدًا الوَسيلة والفضيلةَ والدرجةَ العاليةَ الرفيعةَ، إنهُ وليُّ ذلك والقَادِرُ عليْهِ.

وبعد،،

فهذه روايةُ - الشاعر - نقف معها وقفة خفيفة محللينَ وموضحينَ رأي الأدباء والنقاد في قيمتها الفنيّةِ والإبداعيةِ بشيءٍ من الإيجاز.

إنها روايةٌ أدبيَّةٌ فرنسية، ألَّفَها الشاعر الفرنسي الكبير «إدمون روستان»، وترجمها إلى العربية الدكتور محمد عبد السلام الجندي صديق المنفلوطي، وطلبَ إليه أن يعيد صياغَتها ويحولها من القالب التمثيلي إلى الجانب القصصي، فقامَ المنفلوطيُّ بعمله خيْرَ قيام، فأبدعَ في التصوير، وأجادَ في السَّرْدِ، وأحْكَمَ في البيانِ، «فمن قرأ الأصلَ الفرنسي، وقرأ التعريب لم يجد إخلالًا بالأصْلِ أو خروجًا عن دائرته إلا ما كانَ من الفرق بين بلاغَةِ القلميْنِ ومقدرَةِ الكاتِبَيْنِ، وَمَا لابُدَّ من عُروضه عن كل منقولٍ من لغةٍ لأخرى، وخاصةً إذا قيَّدَ المعرِّبُ نفسَهُ وحَبَسَ قلمَهُ عن التصرُّفِ والافتنان.. كما قال المنفلوطيُّ نفسُهُ في مقدمتِهِ للروَايةِ.

والروايةُ - بإيجاز - تُصَوِّرُ انْتِصَارَ المواهِب علَى المَالِ والجمَالِ كما تُبْرِزُ التضْحِيَةَ فِي أَبْهَى صُورِهَا وأرْوَعِ معانِيهَا.

فقَد ضَحَّى «البطَلُ» بحُبِّهِ وسعادَتِه في سبيلِ سعادَةِ ابنة عمه بل وساعَدَها في حُبٍّ جديدٍ.

ولكنهُ اكتشَفَ - عندمَا حضرتْهُ الوَفَاة - أن ابنةَ عمه كانت تُحِبُّ أدَبَهُ ومَواهِبَهُ في شَخْصِ حبيبها.

لقد استطاعَ «المنفلوطي» أن يجعلَ من رواية «الشاعر» أدبًا يربط الغربَ بالشرقِ،

رغمَ عدمِ معرفته باللغة الفرنسية التي عرَّبَ كثيرًا من رواياتها عن طريق أصدقائه، ثم كانت له بلاغة الكلمة، ونصاعة التركيب وجمال التصوير.

فقد ساعده صديقه الأستاذ/ محمد فؤاد كمال في قصة «ماجدولين» وترجم له صديقه الأستاذ/ حسن الشريف قصة «في سبيل التاج»، وترجم له صديقهُ الأستاذ/ محمد عثمان جلال قصة «الفضيلة».

أما رواية «الشاعر» فقد ترجمها له صديقه الدكتور/ محمد عبد السلام الجندي كما ذكرت آنفًا.

وقد دافع الأستاذ «جورج سلستي» عن «المنفلوطي» عندما حاول بعض النقاد هدم أدب الرجل والحطّ من قدره بسبب الحقد الذي حمله بعض الخصوم عندما رأوا انتشارَ أدبهِ بصورة لا مثيل لها، وقد تصدى شوقي «أمير الشعراء» للغارات التي كان أعداء المنفلوطي يشنونها عليه لأتفه الأسباب فقال حين رثاه:

سَكَنَ الأحِبَّةُ والعِدَى وفرَغْتَ مِنْ ... حِقْدِ الخصُومِ ومِنْ هَوَى الأشياعِ

كَمْ غَارَةٍ شَنُّوا عليْكَ دَفَعْتَهَا ... تَصِلُ الجهُود فكُنَّ خَيْرَ دِفَاعِ

وصدق من قال: «يموتُ الأديبُ في مِصْرَ حيًّا ويَحْيَ مَيِّتًا»!

دافع «جورج سلستي» عن المنفلوطي وأدبه، فكان ناقدًا متوازنًا، ورجُلًا مُنْصِفًا فقال: «يقولون: إن المنفلوطي ليس بالكاتب ولا بالأديب، وأنه صَنَمٌ مِنْ أصنامِ الأدب يجبُ علينَا تحطيمه وطرحه، وأنه خُلْوٌ حتى من ناحية واحدة خليقةٍ بالتحليلِ ووجهٍ واحدٍ جدير بالدرس!!».

وأقول: ليس «المنفلوطي» بالأديب الكامل، فالأديبُ الكاملُ لم يخلقْهُ اللهُ بَعْد، ولا هو سيد الكُتَّاب ولا إمامُ المنشئين، ولا أميرُ الشعراء، ولكنه من سادة الكُتَّاب ومن أئمة المنشئين، ومن الشعراء المجيدين فعلامَ الإنكار؟

وليس «المنفلوطي» من الروائيين الأفذاذ ولا القصاصينَ النوابغ ولكنه من خيرَة من نقلوا الرواية الأعجمية إلى لغة الضاد، وممن كتبوا في القصة فبلغوا فيها شأوًا فعلامَ التضليل.

إن رواية «الشاعر» من الروايات الفرنسية البليغة، وإن صياغة «المنفلوطي» لها أعطتها قُوَّة وبقاءً بشهادةِ القرَّاء الذين تذوقوا أسلوب المنفلوطي، وعرفوا أدَبَهُ، وتمرسوا على بيانه فلا التفات للترهات التي يبثها الخصوم دون حق أو تعقل!!

ولنقف الآن على لمحات من حياة الأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي بصورة موجزة.

محطات في حياة المنفلوطي:

- ولد الأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي في «منفلوط - بمحافظة أسيوط» في السابع من جمادى الأولى سنة ١٢٩٣هـ- يونيه ١٨٧٦م.
- والده محمد محمد لطفي من قضاة منفلوط ومن أهل الكلمة فيها.
- تعلم مصطفى لطفي المنفلوطي القرآن في كُتاب الشيخ جلال الدين السيوطي بأسيوط.
- وفدَ إلى الأزهر وهو في الثالثة عشرة من عمرهِ، مكث فيه عشر سنوات، وعكف على دراسة التراث العربي القديم، وواظب على حضور دروس الإمام محمد عبده، وقد أتيح له الاطلاع على ماتحويه مكتبتَيْ والده وعمه السيد إبراهيم لطفي وكان رئيسًا للمحكمة الشرعية في منفلوط.
- في أثناء دراسته بالأزهر نظم قصيدة في هجاء الخديوي عباس إثر قدومه من الآستانة وهي المعروفة بقصيدة «قدوم ولكن لا أقول سعيد» في عشرين بيتًا ولم يتجاوز عمره الحادية والعشرين عامًا، وقد وزعت على جمهور المستقبلين للخديوي، وهذه القصيدة قد شَغَلَتْ الرأي العام زمنًا طويلًا، فهي بعد أن انتشرت في أيدي مستقبلي الخديوي حين عودته من رحلة ترفيهية بأوروبا يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٧ وكلها طعن في الخديوي وتسفيه لحكمه الذي اتسم بالطغيان والجبروت، وقد شاع أن الأستاذ أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة هو الذي قام بطبعها، ولما اعترف في تحقيق النيابة أنه هو ناظمها لم تأخذ النيابة باعترافه، وقبضت على الناظم الحقيقي لها وهو المنفلوطي بعلم واتفاق مع السيد محمد توفيق البكري.
- قُدِّمَ المنفلوطي والبكري والشيخ محمد الخيامي صاحب المطبعة التي طبعت بها

القصيدة إلى المحاكمة، فقضت محكمة جنح السيدة بحبس المنفلوطي سنة وبتغريمه ٣٠ جنيهًا وحبس الثاني عشرين شهرًا وتغريمه ٣٠ جنيهًا وبراءة الثالث، وقد سميت هذه القضية في ذلك الحين «قضية السفهاء»، وقد أمر الخديوي بإغلاق جريدة الصاعقة جزاء لصاحبها على نشر القصيدة بها بعد مصادرة العدد الذي نشرت به بتاريخ ٤/١١/ ١٨٩٧م.

وقد نشرت القصيدة في حينها بمجلة «أنيس الجليس» عام ١٨٩٧م التي كانت تصدر بمدينة الإسكندرية حينذاك، ونشرت أيضًا بجريدة الصاعقة التي صودرت بسبب ذلك ثم أُغلقت لنفس السبب إلا أن هذه القصيدة كان حظُّها من الذيوع والانتشار أوفر من حظ القصائد التي أُبيح نشرها. والقصيدة منها:

قُـــدُومٌ وَلِـكـنْ لَا أقُـــولُ سَعِيدُ   وَمُـلْـكٌ وَإنْ طَـالَ المَدَى سَيبِيدُ
رَحَلْتَ وَوَجْـهُ الناسِ بالبِشْرِ بَاسِمٌ   وَعُـدْتَ وَحُـزْنٌ فِي القُلُوبِ شَديدُ

وقد طلب منه أن يعدل عن موقفه فرفض وأصر على كل حرف فيها، إلى أن تطوع أمير الشعراء أحمد شوقي بتعديلها بما يناسب المقام فقال:

قُـــدومٌ ولـكـنّـي أقُـــولُ سَـعِـيـدُ   ومُلْكٌ وإنْ طَـالَ المَدَى سَيزيدُ

- ظل في السجن مدة ٦ شهور من السنة وسعى الشيخ محمد عبده لإصدار العفو عن المنفلوطي فعفى عنه، ولما تولى سعد زغلول وزارة المعارف عينه محررًا عربيًا لها، وحقد عليه كثير من زملائه ومنهم الشيخ منصور مهران من طلبة دار العلوم الذي قال عن المنفلوطي «رجل لا يحمل شهادة ولا يعرف عن العربية شيئًا كيف يصل إلى هذا المنصب، فما كان من سعد زغلول بعد أن وصل الأمر إلى الخديو إلا أن قال: «إذا لم يكن له من الشهادات سوى كتبه فحسبه بذلك فخرًا».

وكان ذلك التعيين في ١٦ أبريل عام ١٩١٠ وقامت قيامة «دنلوب» مستشار المعارف الإنجليزي في ذلك الوقت إلا أن سعد زغلول تمسك به وقال: «إن الحكومة في حاجة ماسة إلى مثل مصطفى لطفي المنفلوطي».

• توفى المنفلوطي في ١٢ من يوليه سنة ١٩٢٤، ودفن في مدافن الإمام الشافعي بالقاهرة عن ثمانية وأربعين عامًا، رحمه الله رحمةً واسعةً.

وكان ذلك يوم حادثة سعد زغلول فقد أطلق شاب متهور الرصاص على سعد زغلول في محطة القاهرة ولكن الله حفظه، وقد عبر أمير الشعراء أحمد شوقي عن هذه الحادثة في رثائه للمنفلوطي بقوله:

اخـتـرتَ يَـوْمَ الـهَـوْلِ يَـومَ وَدَاعِ ... ونعاكَ في عَصْفِ الريَاحَ النَّاعِي

هَتَفَ النعاةُ ضحًى فأوصدَ دُونَهُم ... جُـرْحُ الرئيسِ منافِذِ الأسْـمَـاعِ

مَنْ مَاتَ في فزعِ القيامةِ لم يجِد ... قـدمًـا تُـشَـيـعُ أو حَـفَـاوةُ سَـاعِ

مَـا ضَـرَّ لـوْ صَـبَـرَتْ ركابُك ساعةً ... كيفَ الوقوفُ إذا أهَـابَ الدَّاعِي

خـلِّ الجنائزَ عنْكَ لا تحفلْ بِهَا ... لـيـسَ الـغُـرُورُ لميتٍ بِـمَـتَـاعِ

لم يكن لنا من عملٍ سوى هذه الدراسة وهذا التقديم، وقبل كل هذا ضبط نص الرواية، وإضافة ما سقط في الطبعات التي أخرجتها المطابع وعبثت بها بعض الأيادي، ثم بيان بعض المعاني التي تحتاج إلى توضيح إتمامًا للذي قام به الأديب العلامة.

سائلين الله العون على استكمال الأعمال الكاملة للمنفلوطي الأرِيب.

الفقير إلى مولاه

عادل عبد المنعم أبو العباس

إهداء الرواية[1]

إلى الشعراء

مؤلف هذه الرواية شاعر، وبطلها شاعر، وأكثر أشخاصها شعراء، وموضوعها الشعر والأدب، وَعِبْرتُها أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم، وأبدع صورة رسمتها ريشة المصوِّر الأعظم في لوح الكائنات، وأنها هي التي يهيم بها الهائمون، ويتولَّه المُتَوَلِّهُون، حين يظنون أنهم يعشقون الصور ويستهيمون بمحاسن الوجوه.

لذلك أقدِّمها هدية إلى الشعراء، فهم رجالها وأبطالها وأصحاب الشأن فيها، ولا أطلب عندهم جزاء عليها أكثر من أن أراهم جميعًا في حياتهم الأدبية والاجتماعية، سيرانو دي برجراك.

أول مايو سنة ١٩٢١

مُصْطَفَى لُطْفِي المَنْفَلُوطِي

(١) ساقط من كل الطبعات الحديثة.

مقدمة[1]

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندي على هذه الرواية التي عرّبها عن اللغة الفرنسية تعريبًا حرفيًا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة، وطلب إليَّ أن أهذب عبارتها ليقدِّمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها، ففعلت؛واستطعت في أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة، وأن أستشف أغراضها ومغازيها التي أراد المؤلف أن يُضمِّنها إياها، فأعجبني منها الشيء الكثير، وأفضلُ ما أعجبني منها أنها صوّرت التضحية تصويرًا بديعًا، وهي الفضيلةُ التي أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الإنسانية ونقطةُ دائرتها؛ فرأيت أن أحوِّلها من القالَبِ التمثيلي إلى القالَبِ القصصي؛ ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل.

وقد حافظْتُ على روح الأصل بتمامه، وقيدت نفسي به تقييدًا شديدًا، فلم أتجوّز إلا في حذف بعض جمل لا أهمية لها، وزيادة بعض عبارات اضطرتني إليها ضرورة النقل والتحويل، واتساق الأغراض والمقاصد، بدون إخلال بالأصل أو خروج عن دائرته، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي بعينه، إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلَمين ومقدرة الكاتبين، وما لابد من عُروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى، وخاصة إذا قيد المعرِّب نفسه وحبس قلمه عن التصرف والافتنان.

مصطفى لطفي المنفلوطي

(١) أسقط الناشرون هذه المقدمة، وهذا مما لا يجوز منهم طبقًا للأمانة العلمية لمثل هذه المقدمات.

أشخاص الرواية

سيرانو دي برجراك:

شَاعِرٌ فرنسيٌّ مِنْ شُعَرَاءِ القرنِ السابعَ عَشَرَ نشَأَ غريبًا في أطْوَارِهِ وأَخْلَاقِهِ متفرِّدًا بصفاتٍ قَلَّ أن تجتمعَ لأحدٍ من معاصريه، فكانَ جامِعًا بين الشَّجَاعَةِ إلى دَرَجةِ التهوُّرِ، والخجلِ إلى درجة الضَّعْفِ، وبينَ القسْوةِ إلى مُعَاقَبَةِ أعدائِهِ على أَصْغَرِ الهفواتِ[1]، والرِّقَّةِ إلى البكَاءِعلى بُؤْسِ البائسينَ من أصدقَائِهِ وأبناءِ حِرفتِهِ، وكان كريمًا متلافًا[2]لا يُبقي على شيءٍ مما في يَدِهِ، وعَفيفًا لا يَمُدُّ يَدَهُ إلى مخلوقٍ كائنًا مَنْ كَانَ، وصَريحًا لا يتردَّدُ لحظةً واحدةً في مجابَهَةِ صاحِبِ العيبِ بعيبه كيفما كانت النتيجةُ المترتِّبَةُ على ذلك، فكان عدوَّ الكاذبينَ والمرائينَ والمغرورينَ والسَّفَلَةِ والمتمَلِّقينَ، أي أنه كان عَدوًّا للهيئةِ الاجتماعية التي يعيشُ فيها تقريبًا، كما كانت عدوَّةً له كذلك، لا تهدأ عن مُشاكَسَتِهِ ومُناوأتِهِ وابتغَاءِ الغوائلِ به.

ولم يكُن له من الأصدقاءِ إلا أفرادٌ قلائلُ جدًّا هُمُ الذين يفهمونَ حقيقةَ نفسِهِ وجوهرها ويُقدِّرونَهُ قَدْرَهُ وقَدرِ صِفَاتِهِ الكريمةِ التي كان يتَّصِفُ بها.

وكَانَ الخُلُقُ الغَالِبُ عَلَيْهِ مِنْ بينِ جميعِ أخلاقِهِ خُلُقَ العزَّةِ والأَنَفَةِ، فكان شديدَ الاحتفاظِ بكرامَتِهِ والضنِّ بعرضِهِ[3] أن يَنَالَ منهما نَائلٌ أو يَعْبَثَ بهما عابثٌ، وكان لا يُرَى في أكثر أوقاتِهِ إلا مُبَارزًا أو مُنَاضِلًا أو ثَائِرًا أو متهاجًا واضعًا يَدَهُ على مِقبَض سيفه أو مُلقيًا قُفَّازَهُ على وَجهِ خَصمِهِ، شأنَ الفوارسِ الأبطالِ في ذلك العصرِ.

وكانتْ بَلِيَّتُهُ[4] العُظْمَى في حياتِهِ، ومَنبعُ شقَائِهِ وبَلَائِهِ أنه كان دَميمَ الوجْهِ كبيرَ الأنفِ جدًّا إلَى درجةٍ تُلفتُ النظرَ وتَستثيرُ الدهشَةَ، وكان يَعْلمُ ذلكَ من نفسِهِ حقَّ العِلْمِ ويتألَّمَ بسببِهِ تألُّمًا كثيرًا؛ لأنه كانَ عاشقًا لابنةِ عَمِّهِ «روكسان» الشهيرةِ بجمالِها النادرِ وذَكَائِها الخارقِ، وكان يعتقدُ أن المرأةَ مَهْمَا سَمَتْ أخلاقُها وجَلَتْ صفَاتُها لا يمكنُ أنْ تَقَعَ في أحبولَةٍ غراميَّةٍ غير أُحْبُولَةِ الجمالِ، ولا تَعنَي بحُسنٍ إلا بحُسن

---

(١) الهفوات: الأخطاء.
(٢) متلافًا: مسرفًا، مبذِّرًا.
(٣) الضنُّ بعرضه: شديد الاحتفاظ به.
(٤) بليَّتُهُ: مصيبته.

الوجُوهِ والصُّوَر. فكان، وهوَ أشجعُ الناس وأجرؤهُم وأعظمُهُم مخاطرةً وإقدامًا، لا يجسُرُ أن يفاتِحَ حَبيبتَهُ هذه في شأنِ حُبِّهِ حياءً من نفسِهِ وخَجَلًا.

فَكَانَ أَنْفُهُ سَبَبَ شقائِهِ مِنْ جِهَتَيْنِ: أنهُ وَقَفَ عَقَبَةً بينه وبينَ غرامِهِ، وأنه كان المنفذَ العظيمَ الذي ينحدِرُ منهُ أعداؤه وخُصومُهُ إلى السخريةِ به والتهَكُّم عليه، وهو لا يُطيقُ ذلك ولا يَحْتَمِلُهُ، فكان النزاعُ بينَه وبينَهم دائبًا لا يَنقطَعُ، وكان لا ينتَهي غالبًا إلا بمبارزةٍ يخرُجُ منها في الغالب فائزًا مُنتَصِرًا، ولكن كثيرَ الخصُومِ والأعداءِ.

وكانَ جُنديًا في فصيلةِ شبَّان الحرسِ منَ الجيشِ الفرنسيِّ، وكان أفْرَاد تلكَ الفصيلةِ جميعُهم من الجاسكونيينَ مثلَه، وهم قومٌ معروفونَ بخشونَةِ الأخلاقِ ووعُورتِها، وبكثرَةِ التبجُّحِ والادِّعَاءِ والغرور والكَذِبِ، ولهم مع ذلكَ فضيلةُ الشجاعةِ والصبر والقناعةِ والشرفِ وعزَّةِ النفس، وكان سيرانو متَّصِفًا بحسناتهم مُتَرَفِّعًا عن سَيِّئَاتِهم، فكان له في نفوسِهم أسمَى مَنزلةٍ من الإجلال والإعظام، وكانوا يحبُونَهُ حُبًّا شديدًا ويُذعِنُونَ لرأيِهِ[1] ويستطرفونَ أحاديثَهُ ودعاياتِهِ ويُفَاخرونَ به وبنبُوغِهِ وشجاعَتِهِ وجُرأتِهِ وصَرَاحَتِهِ، كما كان يفخرُ بهم وبعصبيتهم. وكان من أسوأ الشعراءِ حظًّا في حَياتِهِ، فقد قضَى عمرَه كلَّه خاملًا مَغمورًا، يجهلُ الدهماءُ[2] قَدْرَهُ لأنهم لا يفهَمُونَهُ، ويُنكِرُ الأدباءُ فضلَهُ؛ لأنهم يبغِضُونَهُ ويجدونَ عليه ويَنقِمونَ منه خشونَتَهُ وشِدَّتَهُ في مُؤَاخَذَتهم ونَقدِهِم. فلم يكن يحفِلُ بذلكَ كثيرًا؛ لأنه كان مُخلصًا لا يهمُّهُ إلا أن يكونَ عَظيمًا في عين نفسِه ثم لا يبالي بعدَ ذلكَ بما يكون.

وكثيرًا ما كان ينظمُ الروايةَ الجليلةَ ذاتَ المغزى العظيم والأسلوب الرائِقِ، فلا يفكِّر في إهدائِها إلى أحدٍ من العظماءِ ليتوصَّلَ بذلكَ إلى نَشْرِها وتَرْوِيجِها وحَمْلِ الفِرقِ التمثيليةِ على تمثيلِها، كما كان يفعل الشعراء في عصره، أنفةً وإباءً وضَنًّا بنفسِه أن يقفَ موقفَ الذلِّ والضراعَةِ على أيِّ باب من الأبوابِ كيفما كان شأنُه، وربما سَرَقَ بعضُ الروائيينَ قِطَعًا من رواياتِهِ فضَمَّنُوها رواياتهم وانتفَعُوا بها، فلا يُغضِبُهُ ذلك ولا يُزعِجُهُ، وكلُّ ما كان يفكِّرُ فيه أو يسألُ عنه في هذا الموقفِ: ماذا كان وَقْعُ تلك القِطعَةِ في نفوسِ الجماهيرِ حينَما سَمِعُوها؟

ولقد أخلَصَ في حُبِّهِ لابنةِ عَمِّهِ «روكسان» إخلاصًا لم يُسمَعْ بمثله في تاريخ

---

(١) يذعنون لرأيه: يخضعون لرأيه.

(٢) يجهلُ الدهماءُ: جَهلَة الناس وعامتهم.

الحبِّ، فأحبَّها وهي لا تعلَمُ بحبِّهِ، وتألَّم في سبيل ذلك الحبِّ ألَمًا شديدًا وهي لا تشعُرُ بألمِهِ، وأحبَّت غيرَهَ فلم يَحقِدْ ولم ينتقِمْ، بل كان أكبرَ عونٍ لها في غرامِها الذي اختارتْهُ لنفسِها. ولم يلبَثْ أنِ اتَّخَذَ حبيبَها الذي آثَرَتْهُ صَديقًا له وأخلَصَ في مَوَدَّتِهِ إخلاصًا عَظيمًا، وأعانَهُ على اسْتِمرار صِلَتِهِ بها وبَقَاءِ حُبِّهِ في قلبها، لأنه ما كانَ يهمُّهُ شيءٌ في العالَمِ سِوَى أن يَرَاهَا سَعيدةً في حياتها مُغتَبِطَةً بعيْشِها، وهذا كُلُّ حَظِّهِ في الحياة.

ولم يزَلْ هذا شأنَهُ طولَ حياتِهِ حتى خَرَجَ من دُنياهُ ولم تعلَمْ روكسان بسريرَةِ نفسِه إلا في الساعَةِ الأخيرة التي لا يُغني عندها العِلمُ شيئًا.

روكسان:

ابنةُ عم سيرانو دي برجراك، وهي فتاةٌ شريفةٌ متعلِّمةٌ وافرةُ الفضل والذكاءِ، عاليةُ الهِمَّةِ، عَفيفةُ الذَّيْلِ، مُولَعَةٌ بالشعر والأدب، إلا أنها كانت تذهَبُ في ذوْقِها الأدبيِّ مذهَبَ النساءِ المُتَحَذْلِقَاتِ في ذلك العصر، أي أنها كانت كثيرةَ التكلُّفِ في أحاديثِها وإشارتها، وكانَ لا يُعجِبُها من الكلام إلا ذلكَ النوعُ الذي يُسمّونَهُ بالصناعةِ اللفظيةِ، ولا من المعاني إلا تلك الخيالاتُ الطائرةُ الهائمةُ على وَجهها التي لا أساسَ لها في الحياة ولا وجودَ لها في فِطرةِ النفسِ وطَبيعَتِها.

وقد نشأت يتيمةً منقطعةً لا أهلَ لها ولا أقرباءَ إلا ابن عمها سيرانو، إلا أنها كانت تعيشُ عَيْشًا رَغْدًا هَنيئًا بفضل الثروةِ الواسِعَةِ التي ورثَتْها عن أبوَيْهَا.

فأحبَّها كثيرٌ من النبلاءِ والأشرافِ وعَرَضُوا عليها الزواجَ فلم تحفِلْ بهم، وأحبَّها «الكونت دي جيش» وهو أحدُ قُوَّادُ الجيش الفرنسي، وكان متزوِّجًا بابنةِ أختِ الكردينال دي ريشلييه. فأراد أن يستخدمَ نفوذَهُ وجاهَهُ في حَمْلِها على الزواج من فتىً من أشياعِهِ اسمُه الفيكونت فالفير، على الطريقةِ المعروفةِ في ذلك العهدِ عندَ الملوكِ والنبلاء، فدفعَتْهُ عنها برفق وحِكمَةٍ خَوفًا على نفسِها منه، وظَلَّت تماطِلُهُ زَمنًا طويلًا حتى أحبَّها البارون كرستيان دي نوفييت فأحبَّتهُ وأخلَصَتْ لَهُ إخلاصًا عَظيمًا، ولم يكُن في الحقيقةِ مُتَّصِفًا بصفاتِ الفِطنةِ والذكاء والنبوغ التي كانت تظنُّها مجتمعةً فيه، لولا الحيلةُ الغريبةُ التي احتَالَها عليها سيرانو حتى أوهَمَها ذلك، وهنا نكتةُ الروايةِ

وبيتُ قصيدها، ثم تزوَّجَتْ منهُ بعدَ ذلك زواجًا سريًا ولكنها لم تكَد تضعُ شَفَتَها على الكأس حتى انتُزِعَتْ منها، وكان هذا آخَرَ عَهدِها بسَعادةِ الحياةِ وهنائِها.

كريستان دي نوفييت:

نبيلًا من نبلاء الريف وفَدَ إلى باريس؛ ليلتحقَ بفرقةِ الحرس من الجيش الفرنسيِّ، كما كانت عادةُ الأشرافِ في ذلكَ العهدِ، وهي الفرقةُ التي كان يعملُ فيها سيرانو، وكان فتىً جميلَ الصورةِ، شريفَ النفس، طيِّبَ القلب، إلا أنه كان أقربَ إلى البلادَةِ منه إلى الذكاءِ، فوقعَ نظرُه على «روكسان» في حانَةِ بُورجونيا فأحبَّها وأحبَّتْهُ على البُعْدِ، وكان قد عَلِمَ من أمرها أنها فتاةٌ قديرةٌ متفوِّقَةٌ ذكيةُ الفؤادِ غزيرةُ العلم قوِيَّةُ الإرادةِ، لا يعجبُها من الرجال إلا الأذكياءَ المتفوِّقون، فهابَ الدنوَّ منها ومُفَاتَحَتها في شأنِ حُبِّهِ، وخشَى أن يَسقطَ من عَيْنِها سقطةً لا قيامَ له من بَعدِها، ولم يزَلْ هذا شأنَه حتى أدرَكَهُ سيرانو واحتَالَ له تلكَ الحيلةَ الغريبةَ المدهشةَ التي جعلت روكسان تعتقدُ أنها قد أحبَّتْ أذكَى الناس وأسماهُم عَقْلًا وأبعدَهُم غَوْرًا وأطلَقُهم لسانًا وأبلغَهُم قلمًا، لا يريدُ بذلك إلا سعادتَها وهناءَها، وهو يتهالَكُ بينَه وبينَ نفسِه غَمًّا وكَمَدًا؛ لأنه وهو ظامئٌ، هيمانٌ يقدِّمُ الكأسَ بيدِه للشاربينَ ولا يذوقُ منها قطرةً واحِدةً.

الكونت دي جيش:

أحدُ قُوَّادِ الجيش الفرنسيِّ، وهو من أصل جاسكوني كسيرانو، وروكسان. إلا أنه كانَ يذهبُ في حياتِهِ مَذهبًا غيرَ مذهب أبناءِ جلدتِهِ الجاسكونيين في قناعَتِهم وخُشُونَتِهم وبَسَاطَةِ عيشِهم، بل كانَ رجُلًا واسعُ المطامع شَغوفًا بالمعالي متطلِّعًا إلى المناصب العليا والمراتب الكبرى، وقد تمَّ له ما أرادَ من ذلك بجهدِهِ واجتهادِهِ فأصبَحَ من قوَّادِ الجيشِ الفرنسيِّ وصِهْرًا للكردينال دي رشلييه.

وقد رأى روكسان في طريقه مرَّةً، فشَغَفَ بها شَغَفًا عظيمًا، وأرادَ أن يضمَّها إليه من طريق تزويجها من الرجل الذي أحبَّته بمعونةِ ابن عَمِّها سيرانو. فعاداها الكونت من أجل ذلكَ وانتقَم منها ومن زوجها ومن سيرانو انتقامًا هائلًا.

لينيير:

شاعرٌ مسكينٌ من أصدقاءِ سيرانو نَظَمَ قصيدةً طويلةً هَجَا بها الكونت دي جيش، وعَرَّضَ فيها بقصَّته مع روكسان، وفَضَحَ جريمَتَهُ التي أراد أن يقترفَها معها، فحقد عليه الكونت حِقدًا شَديدًا، ودسَّ له كمينًا مؤلَّفًا من مائةِ رجُل ليقتلوه عند رُجُوعِهِ إلى منزلِهِ ليلًا، لولا أن أدركَهُ سيرانو وأعانَهُ على أعدائِهِ فنَجَا.

لبريه:

أحدُ أصْدِقَاءِ سيرانو المخلصِينَ نَصَحَهُ دائمًا بالهدوءِ والسكينةِ وينعي عليه شِدّته وصَرَامَتَه في أخلاقِهِ وطباعِهِ، وينصح من اتخاذ خطَّة في الحياةِ تناسِبُ البيئةَ التي يعيشُ فيها رحمةً وإبقاءً على راحَتِهِ وسُكونِهِ؛ فلا يَحْفِلُ بنُصحِهِ لأن له رأيًا في الحياةِ غيرَ رأيِهِ ومَذهبًا غيرَ مَذهبِهِ، ولم يكن اختلافُهما هذا في المشرب والخُطَّةِ مانِعًا لها من الصداقَةِ والإخلاص ووَفَاءِ كلٍّ منهُما لصاحِبِهِ حتى ما كان يستطيعانِ الافتراقَ ساعةً واحدة.

مونفلوري:

أحدُ الممثِّلينَ في حانة بورجونيا، وكان مَشْهورًا بحُسْنِ إلقائِهِ لرواية «كلوريز» تأليف الروائيِّ الشهير «بارو».

وكان سيرانو يَبْغَضُهُ ويستثقلُ حركاتِهِ التمثيليةَ وينقِمُ عليه إعجابَهُ بنفسِه على قُبحِهِ ودمامَتِهِ، ويأخذُ عليه كثرةَ ترديدَ نظرِهِ أثناءَ التمثيل في مخادِعِ السيِّدَاتِ يحاولُ افتتانَهُنَّ واجتِذَابَ قلوبِهِنَّ، وقد رأهُ مَرَّةً ينظرُ إلى روكسان نظرةً مُريبةً فتعلَّلَ عليه بعضَ العِلَلَ وأمرَهُ أن ينقطعَ عن التمثيل شَهرًا كاملًا، فحاولَ الامتناعَ عليه وعصيانَ أمرِهِ فأنزَلَهُ من المسرح بالقوَّةِ وطردَهُ رغمَ دفاع الكثيرينَ من الأشرافِ والنبلاءِ عنه وخاصَّة الكونت دي جيش.

راجنو:

طبَّاخ مشهورٌ يبيع في حانوته الكبير أفخرَ أنواع المطاعم من شواءٍ وفطائرَ، وحَلوى، وكان مُحِبًّا للشعر والأدب والتمثيل عطوفًا على البؤساءِ من الشعراءِ والممثِّلينَ، وكان

يستقبلُهم في حانوتِهِ استقبالًا حافِلًا، ويقدِّمُ لهم على حسابِهِ ما يقترحونَ من طعام وشراب، وكان كلٌّ حَظِّهِ منهم أن يجلسَ إليهم ويسمَعَ محاوراتهم الأدبية، ويلتقطَ ما يتناثرُ حولَهم من مُسْوَدَّاتِ أشعارِهم وفصولِهم، ويُسمِعُهم ما ينظمُهُ من الشعر الضعيفِ التافِهِ فيتظاهرونَ باستحسانِهِ والإعجاب إبقاءً على مَوَدَّتِهِ، حتى أدركَتْهُ حِرفَةَ الأدب فأفلَسَ، وأغلَقَ حانوتَهُ، فأعانَهُ سيرانو على شئونِ حياتِهِ، وكان من أكبر أنصارِهِ والمتشيِّعينَ له، ولكنَّ الحظَّ كان قد فارقَهُ فلم ينجَحْ في عملٍ من الأعمالِ التي اشتغَلَ بها، وظلَّ البؤسُ ملازِمًا له طولَ حياته.

لـيـــز:

زوجةُ راجنور وهي امرأةٌ فاسدةُ الأخلاقِ خبيثةُ النفس، كانت تهزأُ بزوجِها وتسخَرُ منه وتنعَي عليه اشتغالَهُ بالشعرِ والأدبِ، واهتمامَهُ بالشعراءِ والأدباءِ، وعنايَتَهُ بهم، وكانت تفضِّل أن تقدِّمَ هي بنفسِها الحانوتَ كلَّه لضابطٍ من ضبَّاطِ الجيشِ تُعجَبُ به، على أن يقدِّمَ زوجُها راجنور لقمةً واحدةً منه لأديب من الأدباءِ، ولما رأت تضعضُعَ حالِه وانتكاسَ أمرِهِ، فرَّتَ مع أحدِ ضبَّاطِ الجيشِ بعدَ ذلك.

كاربون دي كاستل:

قائدُ فصيلةِ شبَّانِ الحرس، وكان كلُّ أفرادها من الجاسكونيين، وهو جاسكوني مثلُهم فكانَ يحبُّهم حُبًّا شَديدًا ويعطفُ عليهم، وكان يعتمدُ في أعمالِهِ على سيرانو، ويَعُدُّه خيرَ جنودِهِ، والتاريخُ يذكرُ له دفاعَهَ العظيمَ بفصيلتِهِ في ميدانِ أراس عن الموقع الذي اختارَ جيشُ العدوِّ مهاجَمَتَهُ حتى تمَّ النصرُ للرايةِ الفرنسيةِ على الرايةِ الإسبانيةِ.